الهند المدهشة في رواية "في فمي لؤلؤة" لميسون صقر

د.عبد المجيد ألاييل إبراهيم

أستاذ مشارك قسم الماجستير والبحوث في اللغة العربية وآدابها كلية الأنصار العربية ولاونور–كيرالا -الهند

الملخص

رواية في فمي لؤلؤة لشاعرة الإماراتية ميسون صقر القاسمي تسلط الأضواء إلى لجج البحور مليئة بالغموض والعجائب. والروائية ترسم ضمن سطورها جمال البحر وتغوص إلى عالم بلا حدود وتخرج اللآلي والمرجان .والكاتبة ميسون صقر تنسج خيوط روايتها الرائعة بالخيال والأسرار.والكاتبة توضح حياة صياد اللآلي القاسية التي تحارب الأمواج والأخطار. والقارئ يسير على شاطئ الرواية ويواجه التحديات الخطيرة و يحس الخوف والقلق. والكاتبة تعلمنا كيف نواجه التحديات في مواقف الحياة المختلفة.وهي ترسم آلام وآمال وجوه أهالي صياد اللآلي ويتصدر هذا الإحساس بقوة .والكاتبة تصف شواطئ الهند وجمالها في حين تصف مذاق التوابل الهندية.

نبذة عن حياة ميسون صقر القاسمي

ولدت بالإمارات، وتخرجت من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية من قسم السياسة بجامعة القاهرة. وعملت في المجمع الثقافي بأبوظبي في مركز الوثائق ، ثم في مؤسسة الثقافة والفنون كرئيس لقسم الثقافة، ثم لقسم الفنون ثم أنشأت قسماً للنشر بما فيه من عقود ونظم ومستشارين وطبع خلال فترتها الكثير من الكتب الهامة المترجمة والمؤلفة، ثم اصبحت رئيس قسمي النشر والفنون فأنشأت قسم النشر كما أنشأت و أقامت مهرجان الطفولة الأول والثاني. وعملت بوزارة الاعلام والثقافة كمدير الإدارة الثقافية.

جربت كتابة السيناريو لأعمال للأطفال وأخرجت ستة أعمال صلصال لهم بهذه السيناريوهات . و انتهت مؤخرا من تجميع وتحقيق الأعمال الكاملة لوالدها الشاعر الشيخ صقر بن سلطان القاسمي في أربعة أجزاء والذي عملت عليه منذ فترة طويلة.

لها رو اية واحدة باسم ريحانة، صدرت من دار الهلال بالقاهرة وتتحدث عن فكرة الحرية والمرأة وتلامس البنية التحتية لو اقع الخليج في فترة ما قبل النفط. ولها مساهمات مهمة في الفن التشكيلي أقيمت لها معارض تشكيلية عدة. وفي الأفلام القصيرة لها فيلما تجريبيا خيط وراء خيط، وقد حصل على جائزة لجنة التحكيم في أفلام الإمارات بأبوظبي , وعرض في مركز الفنون بالقاهرة وشارك في مهرجان الإسماعيلية للأفلام التسجيلة والقصيرة كما شارك في معرض الدائرة بمسقط ، عمان.

كما صدر لها رو اية في فمي لؤلؤة عام 2016 عن الدار المصرية اللبنانية، تعد الرو اية مزيج من الشعر الشعبي والحكايات القديمة والجديدة، حكايات من كتب من الشعراء، و أبرز من كتبوا عن اللؤلؤ.. وهي حصاد سبع سنوات من البحث والقراءة والتأمل.

لها عدة مشاركات فنية وشعرية بالعديد من المهرجانات العربية والدولية. كما ترجمت لها بعض القصائد إلى الإنجليزية والفرنسية والأسبانية والألمانية

<u>على شاطئ في فمي لؤلؤة</u>

"تبرز فكرة التحدي منذ الخيوط الأولى للرواية، في ترك «شمسة» حقل الدراسة بعد خلاف بينها وأستاذها معلم الأنثربولوجيا حول طبيعة البحث التي تنوي به مواصلة الدراسات العليا بالجامعة، ورفضه خطتها لإنجازه، متهمًا إياها بالانسحاب من الكتابة الأكاديمية الرصينة المجردة إلى كتابة بلا عظم".1

ورغم حبها الدفين لأستاذها، الذي يظل يومض بخفة في جنبات الرواية، فإن شمسة تنتصر لحكايات جدتها عن الذاكرة القديمة للمكان، التي تذكرها بجزء حي من تاريخها الشخصي هناك في تلك البيئة الإماراتية التي شهدت تفتح عينيها على الحياة، كما تنتصر لحواديت الجدة نفسها

عن عالم الصيادين ورحلات الغوص في مياه الخليج بحثًا عن اللؤلؤ. ويتحول كثير من هذه الحواديت، بما تحمله من دلالات ورموز إلى طاقة حية، لإثارة الدهشة والأسئلة على مدار الرواية الحاشدة بفصولها الستة وصفحاتها التي قاربت على الستمائة صفحة، ومكابدة كتابتها ومعايشتها على مدار سبع سنوات مضنية من التقصي والنبش، والبحث في حفريات اللؤلؤ عبر وثائق ورسائل ومتون وهوامش، وأساطير، وحكايات متناثرة في فضاء التاريخ والجغرافيا، وخطى البشر وأحلام الغواصين، وصراعات العيش وسط عواصف البحر والطبيعة، ومواجهة مخاطر الموت بالأغاني والشعر والمواويل الشعبية، وغيرها من المقومات السردية والفكرية، الذي يزخر به نسيج الرواية الخصب، ومن بينها مساءلة فكرة الكتابة نفسها، هل هي ملاحقة لأزمنة انقضت، واستشراف لأزمنة أخرى آخذة في التفتح والنهوض، أم هي سلاح الذات لمقاومة الموت والإحساس بالذبول. تشير شمسة إلى هذه الهواجس في مقطع دالٍّ من الرواية قائلة: «كلما كتبت مات أحد، وكلما فكرت فيه مرضتُ، كلما شرعت في الكتابة بدأ أحد من أسرتنا في الغياب.. ها أنا أعاود قتل عائلتي، ولا أقتل الكتابة». وإمعانًا في مناورة السرد واللعب مع الكتابة لا تكتفي الكاتبة بغواية صيد اللؤلؤ ومغامرة الغوص في عوالمه القصية، وإنما تضيف لهذه المغامرة غواية الصورة، مستفيدة من خبرتها كفنانة تشكيلية في تصميم الغلاف، فتدفع بصورة للممثلة الشهيرة مارلين مونرو لتتصدر واجهة الغلاف، وهي ترتدي عقدًا من اللؤلؤ الصناعي، بينما يتناثر على وجهها خريطة قديمة لمنطقة الإمارات مشكِّلة غلالة نصية وفنية، ينضوي تحتها كثير من الرموز والدلالات، ما بين زمن أصبحت غوايته الطبيعية فوق رف التاريخ، وآخر يتشكل منه بشكل هجيني، لكنه في صدارة المشهد.

"وعلى ذلك، تسلط الرواية الضوء على تاريخ الحياة في مجتمع دولة الإمارات، وتحديدًا إمارة الشارقة، مسقط رأس الكاتبة، ناسجة من تلك الوقائع، لا سيما صيد اللؤلؤ وحكايات الغواصين وتراث البيئة بأعرافه وتقاليده وعاداته شبكة للسرد والحكي، تتحرك في شكل ضفائر سردية متعددة ومتراكبة اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا وعاطفيا. ورغم أن قوسي البداية والنهاية مرتبطان بمهنة الغوص وصيد اللؤلؤ، ورصد تحولاتها ولحظات أفولها

وانهيارها، خصوصًا بعد ظهور اللؤلؤ الصناعي، واكتشاف النفط، وبداية نشأة الدولة الحديثة، وتغير منظومة الصراع، ونظرة الغرب لمنطقة الخليج، رغم كل هذا لا تضع الرواية ثوابت وفقًا لمسار تاريخي محدد، وإنما تحاول استنطاق الماضي في الحاضر، الخاص في العام، متخذة من إيقاع الموجة محورًا لفضاء رحلتها، بين أزمنة وأمكنة متنوعة، تنحسر وتغيب، لكنها سرعان ما ترتد إلى الشاطئ. شاطئ الكتابة، وفوق ترابه تستدعي الكاتبة الساردة على لسان أبطال الرواية قصصا وحكايات ومواقف لبشر ومستعمرين وثورات، كما تتكشف لها في طوايا السرد رسائل ووثائق لرحالة ومستشرقين، بعضها ابن ماض لم يزل نبضه حيًا، وبعضها ابن حاضر لا يستطيع أن ينطق باسمه، فبجوار الشارقة، الرحم الأم للرواية، وعبر مناخاتها المشدودة كحلم معلق ما بين الوهم والواقع، تتنقل الرواية ما بين الهند، وكينيا والقاهرة، مقر إقامة «شمسة» ومرتع صباها وأحلامها ودراستها، أيضًا هناك نمط الحياة في البادية ومواسم الصيد وخيام الصيادين ومفردات حياتهم الضحلة الفقيرة، كما تتنقل بين الحصون، حيث مقر الحكم، وحياة الشحوح في الجبال، حيث المراعي المفتوحة وحظائر الإبل"2.

هناك نسق سردي مشرّب بمسحة تاريخية، لكنه لا يتعامل مع التاريخ كحقيقة مكتفية بذاتها، وإنما يطرحه كسؤال ممتد في الزمان والمكان، في رحم الرواية والواقع معًا، وهو ما يضفي على الكثير من شخصيات الرواية طابع التشكيل الحلمي أو الملحمي، الذي يقترب كثيرًا من مصاف الأسطورة، وعلى نحو خاص، شخصية «مرهون» الغواص الأمهر، بطل الرواية الرئيسي، حيث يتداخل في أبعادها الواقعي بالتخييلي، الحضور بالغياب. لكن مرهون يظل في كل تحولاته تجسيدا لشفرة إنسانية غامضة، تراوح بين زمنين، زمن الماء وزمن اليابسة، زمن الغوص بحثًا عن اللؤلؤ من أجل لقمة العيش، وزمن الغوص في طوايا الروح والجسد والطفولة بحثا عن مساحة نقية لتقلبات العاطفة والحب والارتواء.. «جرتني قدماي إلى الخارج عند البحر، لأرى إن كان مرهونًا هناك، هل سيحدثني البحر؟ جلست قليلا أنتظر شيئا ما لا أعرفه، وأفكر في وليم ومسعود وعالم السفينة.. ندهت: يا مرهون يا مرهون، لم يسمعني!، كل ما فعله أنه أزاح الفطم

الذي يغلق أنفه به، ثم مسح الماء من على وجهه، أفرغ سلة المحار، تنفس عميقا، وغطس ثانية».

يشكل مرهون زمن الرواية الخاص الداخلي الحميم، فهو صائد اللؤلؤة الساحرة النادرة، التي بسببها قامت حروب ومطاردات، كما أنه في كل تجلياته لا يتخلى عن ذاتيته وروحه المفطورة بالصدق والتلقائية.

ومن ثم، تنمو الرواية دراميا بقوة التاريخ والعاطفة معا، التاريخ في إطاره السياسي الاقتصادي الاجتماعي للمنطقة ومنحنيات التحول من عالم التجارة إلى الزراعة والصناعة في حياة البدو والمدينة.

والعاطفة، في حزمة من الأحلام المؤجلة والمعطلة، سواء في علاقة شمسة بأستاذها، أو في بحث مروة صديقتها ورفيقتها في الرحلة، عن علاقة حميمة صادقة، تعول عليها اجتماعيا في تغيير مسار حياتها البائسة، أو في علاقة آمنة بمرهون، التي تتحول إلى مشهد تراجيدي محفوف بالغدر والهروب والخيانة، حيث تلقى مصرعها على يد يوسف «زوجها» سارق اللؤلؤة الثمينة، وكذلك في علاقة وليم الرحالة المصور بفيكتوريا الممرضة الإنجليزية، فرغم أنها تكبره بسنوات، فإنه أصبح يمثل لها الرمق الأخير في التشبث بالحياة، لا سيما بعد موت زوجها القبطان الشهير ورحيل ابنتها عنها. أو في حنين شمسة الدائم لفضاء العائلة، وصورة الجدة والأب والأم.

إنه حجر التاريخ والعاطفة، فوقه تتعدد عوالم هذه الرواية، وتتنوع أسئلتها في مدارات مشربة بروح الملحمة، فالتاريخ حكّاء بطبعه، لكن قراءته من قبل المؤرخين والمختصين قد تنحي العاطفة جانبًا، لكنه في عين الكاتب الروائي، وتحديدًا هنا في هذه الرواية مادة قابلة للحكي، لا يمكن أن نجردها من العواطف والرؤى والانفعالات التي تتحول في تقنيات القص إلى إشارات وعلامات ورموز، من خلالها يتم استدعاء التاريخ، بقوة الماضي والحاضر والمستقبل معًا.. اللافت أيضًا أن التاريخ بكل تداعياته وثقله وخفته، لا يمثل خصوصية المكان، بل يشير إليه بشكل عابر، بينما يحفر هذه الخصوصية ويدل عليها الشخوص بكل مسارب حياتهم الخشنة

المجدبة، وأحلامهم العادية البسيطة في غد أكثر أمنًا، يوفر لهم الحد الأدنى لحياة كريمة، لا يشعرون في كنفها أنهم مجرد عبيد للقمة عيش بالكاد تكفي لوجودهم أحياء فوق سطح الحياة.

هو إذن تاريخ من الغبن واللؤلؤ، هكذا تصفه الكاتبة على لسان أمها، وهي ترى العقد الذي أهدته لها الجدة، يتألق في عنقها بلؤلؤته الفريدة الساحرة التي اصطادها مرهون.. «تنظر إلي وهي تقول إنه شرف لي أن أحمل تاريخا للوجيعة يا حبيبتي».

هذا الوجع يتناثر في جسد الرواية كعصارة حية لخبرة حياة، تحاول أن تكشف عن معناها الأعمق والأشمل في واقع لم يعد مغلقًا على ذاته، يتجسد ذلك عبر مقومات نصية وفنية تتمتع بحيوية فائقة، ولغة سردية سلسلة، يمتزج فيها الفصيح بالعامي الشفاهي أحيانًا، كما أن عالم اللؤلؤ نفسه يتحول إلى قيمة معرفية إنسانية، فالرواية تجعلنا نعايش هذا العالم، ونلمس رذاذه ورائحته، وعرق الصيادين وهواجسهم، وساعات نومهم وأكلهم وشربهم، في كل مراحل الغوص، وذلك خلال حرفية عالية في الوصف والتدوين لنثريات الحياة، سواء فوق مركب الصيد في البحر، أو في طقوسها والاستعداد لها على البر.. وهو ما نرصده على هذا النحو في لقطة من مشاهد الرواية: «قبل الفجر بلحظات ينتبه الغواصون جميعًا، ويبدأون يومهم، تبدأ الجلبة في السفينة حتى يعم الظلام ليلاً، وتهدأ الحركة، فيجلسون في شبه حلقات، يفلقون المحار الذي اصطادوه في النهار أو محار اليوم السابق، الذي يكون قد مات الكائن المحاري داخله، وهم يغنون، ويلقون القصيد ويتحاورون». وبالعصارة النصية نفسها يتحول الوصف إلى ما يشبه الاستبطان الداخلي، لما تنطوي عليه الشخوص من رؤى وعواطف ومشاعر وانفعالات، في أقصى لحظات الحياة حزنا وألمًا، وأقصاها صخبًا واستمتاعًا بشواغل الروح والجسد.

نحن أمام نص روائي حمال لروايات ونصوص كثيرة، تفيض عنه في علاقة صاعدة دراميًا وإنسانيًا بشكل تلقائي: هناك نص مرهون والبحر وآمنة، هناك نص شمسة وأستاذها وتحولات فكرة الكتابة وإثبات الذات بقوة الفكرة نفسها وضعفها الإنساني أيضًا، هناك علاقة وليم بفيكتوريا، و أيضًا صوره ورسائله المهمة سواء للمعتمد البريطاني أو لصديقة جيرارد رفيقه في

بعثته إلى أفريقيا، وهي رسائل توثق لكل شيء في الخليج حتى علاقات النساء.. هناك علاقة كاترين ابنة فيكتوريا، التي تتنكر في شخصية قبطان وتقود بالفعل إحدى السفن بالخليج، وتستضيف آمنة على متنها، هناك حكاية اللؤلؤة الفريدة التي جلبها مرهون، وكيف سُرِقت من على السفينة، وانتهى بها الحال في عقد ثمين تتوارثه أم شمسة عن جدتها، هناك معرض اللؤلؤ، ورسائل وليم بعد أن عثر عليها، وغيرها من النصوص التي خلقت لها هذه الرواية باقتدار مجالات إدراك ومعرفة جديدة، ووثقت لتراث اللؤلؤة بكل أنواعه وأشكاله وحكاياته في شتى حدوسات المعرفة الإنسانية، كتاريخ للجمال والغبن أيضا.. أو كما تقول شمسة في رسالة أخيرة لأستاذها في ختام الرواية: "لم أكن أكتب بحثا، كنت أبحث عما أكتبه، وأستشف الحياة في رشفها اللؤلؤ الكامن في المحار، ويشي بكل عنف وعشق، لقد تركت الحزن ينهشني لعدم تفهمك، لكن قصة الحياة سحبتني إليها".3

جمال شواطئ الهند وتجارتها في رواية "في فمي لؤلؤة"

والكاتبة تكتب عن ميناء الهند:

"عند وصول السفينة الى ميناء الهند نزلت آمنة مع الجنود بعد أن أعطتها كاترين نقودا كي تشتري ما ترغب من ملابس أو طعام لها ،سارت فى الميناء تنظر إلى كل شيء رأت نساء هنديات يسرن ويجئن وهن يلبسن زيا جميلا "4

كاتبة الرواية تقول عن مهارة الرجل الهندي:

"فى المساء حضر إلى السفينة رجل هندي يتحدث العربية و الإنلجليزية وقف بأدب جم عند مدخلها وطلب السماح له برأية آمنة"5

والكاتبة تذكر منتجات هندية الرائعة:

"وحين التقيا اتفقت آمنة معه أن يجلب لها التوابل التى تطلبها منه من الساحل الهندي واندونيسيا طلبت الفلفل والقرفة والكركم والقرنفل والزنجبيل والسكر والشمع وجوز الهند والأرز والأصماع العطرية المستخرجة من أخشاب العود والصندل وبتلات الزعفران الناعمة والأخشاب"6

ميسون صقر تذكرجمال الملابس الهندية:

"بعثت الى الهندي رام أن يبحث لها عن منزل قرب منزله أو فى محيطه حتى تستأنس به وبأهله ثم ذهبتا هي وكاترين لرؤية المنزل.....تركت سفينة فى الميناء وذهبت الى أقرب فندق وضعت ملابسها العسكرية عنها وارتدت كاترين لأول مرة الملابس الهندية المزركشة"7

والكاتبة تذكر أيام مدينة كلكتا:

"فكر مرهون فى عمل رحلة صغيرة بين الطرقات فى كلكتا لكنه تغاضى عن ذلك مع مجيئ إمنة ومن خلفها سعيدة عجوز تحمل بعض الطعام كانت رائحة الطعام شهية ببعض التوابل الهندية التى تشبه توابل الخليج الى حد بعيد 8"

الروائية تصف جمال كيرالاو حياة أهاليها:

"جذبت كيرالا آمنة جذبتها مدينة الباحثين عن الحرير والبهارات والعاج والشاي والفانيلا كما جذبت التجار وكانت تتميز بأمطار موسمية وتطل على بحر العرب ممتلئة بالقنوات المائية والغابات الإستوائية .أحبتها كاترين واختارتها آمنة لقربها من عائلة رام.بها اليهود والمسيحيون والمسلمون والهندوس يعيشون بسلام ،لولا بريطانيا التى كانت تحاول إثارة الفتن بينهم "9

والكاتبة تصف جوز الهند:

"نخلة جوز الهند تسمى باللغة المحلية كيرام فسميت المدينة كيرالا"10

الخاتمة

هذه الرواية تنمو دراميا بقوة التاريخ والعاطفة معا، التاريخ في إطاره السياسي الاقتصادي الاجتماعي للمنطقة ومنحنيات التحول من عالم التجارة إلى الزراعة والصناعة في حياة البدو والمدينة. من جميل ما حوته رواية في فمي لؤلؤة، بالإضافة إلى السرد الممتع في لغة سلسة المبنى والمعنى، أقوال عن اللؤلؤ، قديماً وحديثاً، أوردتها الشيخة ميسون القاسمي مما دل على رقي الذوق والتتبع الواسع والقراءة العميقة.

المصادر والمراجع

ميسون صقر- رواية فى فمي لؤلؤة-الدار المثرية اللبنانية القاهرة 2016

.جمال القصاص – مقال «في فمي لؤلؤة».. حجر العاطفة والتاريخ في أزمنة منسية- الشرق الأوسط -2016 مايو17

https://www.alkhaleej.ae/

الهوامش

1. جمال القصاص – مقال «في فمي لؤلؤة».. حجر العاطفة والتاريخ في أزمنة منسية- الشرق الأوسط -2016 مايو17
2. جمال القصاص – مقال «في فمي لؤلؤة».. حجر العاطفة والتاريخ في أزمنة منسية- الشرق الأوسط -2016 مايو17
3. ميسون صقر- رواية فى فمي لؤلؤة-الدار المثرية اللبنانية القاهرة 2016 ص 569
4. المصدر نفسه ص 330
5. المصدر نفسه ص 331
6. المصدر نفسه ص 336
7. المصدر نفسه ص 341
8. المصدر نفسه ص 436
9. المصدر نفسه ص 437
10. المصدر نفسه ص 438